

● حول الحرية في المنطق القرآني*

■ ■ الشيخ حسن النمر**

أهمية البحث: لماذا الحرية؟ ولماذا القرآن؟

أ- فإن (الحرية) تعد اليوم من الشعارات التي يتبارى الناس جميعاً في رفعها والمناداة بها، وباعتبارنا مسلمين فإن السؤال أو الأسئلة المنطقية التي ستثور هي:
أين هي (الحرية) في المنطق القرآني؟ هل هي مبدأ إسلامي مقبول؟ وما هو معناها؟ وما هي حدودها؟ وما هي مجالاتها؟
ب- وإن الحكمة، التي هي وضع الأمور في محلها، تفرض أن نعتمد في المعرفة المصادر الصحيحة والحقة، والقرآن من تلك المصادر بل هو في طليعتها، وهو فوق ذلك يشكل ميزاناً ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

تمهيد: في المنهج

قبل الدخول في صلب الحديث لابد من الإشارة إلى ملاحظتين:

* ورقة مقدمة لمؤتمر «القرآن الكريم» في دورته الثالثة، تحت شعار (الحرية في القرآن وإشكاليات الواقع المعاصر)، نظمه (ملتقى القرآن الكريم) - شرق السعودية، عقد في مدينة سيهات، في ١٧/١٦ رمضان لعام ١٤٢٦هـ.
** عالم دين - السعودية.

١- لا إطلاق في الحرية:

ليس هناك من ينادي بـ(الحرية) على إطلاقها دون قيد ولا شرط، لأن مثل هذه الدعوة لا يقبلها المنطق، ولا تقرها الأعراف، ولا يساعد عليها الواقع الموضوعي؟ فالإنسان -في ذاته- محكومٌ ومغلوبٌ، أي أنه ليس حراً، في أن يختار ممن يولد ومتى يولد وما هو شكله وما طوله وعرضه...!

والإنسان ليس حراً أمام القوانين الكونية حتى يتلاعب بالقوانين الطبيعية، فهي تغلبه ولا يغلبها.

وأما في الأخلاق والقوانين التشريعية فما كان مقبولاً وسائداً عند الآخرين ليس للإنسان أن يرفضه ويتحرر منه، لأن من الطبيعي أن حرّيته تنتهي عند حدود حقوق الآخرين، وحسناً قال أحدهم أن: ما يدعو البعض حرية يدعو البعض الآخر إباحية. والقرآن الكريم يشير إلى نزوع مذموم لدى الإنسان للتقلت من القيم والقوانين، قال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَمْجَرَ أَمَامَهُ﴾ [القيامة: ٥].

٢- كيف تقيد الحريات:

انطلاقاً مما تقدم لا بد أولاً من أن تُحدد الأصول والأسس التي على ضوءها تُقيّد الحرية هنا وهناك، فيباح شيء في موردٍ ويحظر شيء آخر في موردٍ ثانٍ... وباعتبار أننا مسلمون نعتد القرآن الكريم مصدراً نستلهم منه تشخيص الحق من الباطل والخطأ من الصواب، فإننا إذا عُدنا إلى هذا المصدر، وهو الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، سنجد طافحاً بنصوص صريحة وظاهرة تؤكد أن الإنسان لا ينبغي بل لا يليق، وفوق هذا وذاك يجب أن يكون سيد نفسه، وهو ما نعنيه بـ(الحرية)، والقيد الوحيد الذي يقبله القرآن لتحديد حرية الإنسان هو (الحق). وهذا (الحق)، في أصله وما يتفرع منه، الذي يقبله القرآن مقيداً لحرية الإنسان هو: سلسلة من الواقعيات لا يمكن للعقل البشري أن يرفضها لو استوعبها، وسنستعرض -فيما يأتي- بعض هذه الواقعيات القرآنية التي تمثل أصولاً ومبادئ تحكم (الحرية الإنسانية).

الأصل الأول: كرامة الإنسان في القرآن.

إن التجوال بين الآيات البيّنات يكشف حقيقة لا تقبل الإخفاء ولا الاختفاء، تتمثل في أن (الإنسان) هو محور مخلوقات الله تعالى:

أ - فهو الـ(الخليفة) من قبل الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

ب- وهو الحامل للأمانة العظمى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ

فَأَبَيْنَ أَنْ يَجْعَلْنَاهَا وَأَشْفَقْنَا مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿ [الأحزاب: ٧٢].
ج- وهو المسخر له ما في السموات والأرض، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ
لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [لقمان: ٢٠].

د- وهو المسبغ عليه النعم الكثيرة والخطيرة قال تعالى: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ
ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: ٢٠].

ه- وهو أخيراً المكرّم والمفضّل، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ
وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠].
والمنطق القرآني نفسه يكشف إضافة إلى ذلك، بل يؤكد، حقيقةً جليةً في نفسها،
مفادها أن هذا (الإنسان) مخلوق مستخلف، مستأمن، منعم عليه، مكرّم، أي أنه طرف في
معادلة هو الأضعف فيها فيما يشكل الطرف الآخر، وهو الله الذي هو خالقه ومستخلفه
ومستأمنه والمنعم عليه والمكرّم له، ومن ثمّ فإن العلاقة بينهما هي علاقة الحاكم / الله
من طرف، والمحكوم / الإنسان من طرف آخر.

ومنطق الأشياء - كما لا يخفى على عاقل - يفرض أن يكون لكل من الطرفين حدوداً،
وأن العلاقة بينهما ستكون محكومةً بالحقوق والواجبات من كل طرف تجاه الآخر. مع
بقاء قانون الفوقية للحاكم والدونية للمحكوم، دون أن يعني أن تلك الفوقية وهذه الدونية
تسمح للحاكم أن يظلم وللمحكوم أن يُظلم. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى
اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥].

فالإنسانية معنى سام في القرآن الكريم له متطلباته ومقتضياته، لا يمكن إدراكه
لمن لم ينهل من القرآن نفسه ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْحَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٨].

وسيتبين هذا الأصل بشكل أوضح بملاحظة الأصلين التاليين.

الأصل الثاني: توحيد الله تعالى:

يقرر القرآن الكريم مبدأً يعده أصل الأصول في معارفه التي تدور جميعها حوله،
وهو (التوحيد) ويتفرع عنه عدد من الأصول الأخرى.
ونعني بـ(التوحيد):

أولاً: أن الخالق لهذا الكون بكل ما فيه ومن فيه هو الله عز اسمه

فهو يقرر حقيقة أنه سبحانه خلق السموات والأرض بما يستوجب حمده، وبما لا
يسمح إطلاقاً بالتمرد عليه، قال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ
الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١].

ولن يتنكر لهذه الحقيقة غير المتمردين على المنطق الموضوعي وحقائق الكون التي لا يغل عنها الباحثون عن الحق والحقيقة، وهم الذين يصلون بالتأمل والتفكر إلى أن الله سبحانه ليس هو الخالق فحسب، بل إن فعله (الخلق) نابع من الحكمة والمصلحة، قال تعالى: ﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٤٤].

أما غير المؤمنين وأولئك المتمردون المتبعون لشهواتهم التي تسافلت بهم عن مقام الإنسانية السامي فإنهم يكابرون ويكذبون ﴿ وَجَعَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ﴾ [النمل: ١٤]، أيًا كانت الآيات بينة والدلائل لائحة ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦١].

ولعل السر في ذلك أن ذلك التكذيب وتلك المكابرة من هؤلاء - كما يفيد منطوق القرآن وإشاراته - أنهم يفتقدون العلم والبصيرة ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُغْمٌ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأُ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأُ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ٣٩]. فهم، بسوء سلوكهم وخبث نياتهم، يصلون الطريق ويطمسون معالم النور في فطرهم وعمق أنفسهم، حتى يصبحوا عمياً عن إدراك آيات بحجم السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢].

وهذا الأصل، أعني الخالقية، لا يتنكر له أحد، وإن اختلف هؤلاء وأولئك فيمن هو الخالق ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥]، ولذلك يجبههم القرآن بأبوية الواقع ومخلوقيته، بغير شك، من قبل الله سبحانه، فقد بان الصبح لذي عينين^(١)، ولقد أبصر من استبصر^(٢)، فقال عز من قائل: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان: ١١].

ثم إن القرآن يقرر أن خالقية الله هذه جاءت على الوجه المناسب لجلاله وجماله، فقال تعالى: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ [السجدة: ٧] وألاً ثغرات في خلقه وفعله ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَؤُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴾ [الملك: ٣].

مقتضيات الخالقية:

يقرر، إلى ذلك، أن لهذه الخالقية مقتضيات ولوازم، منها العبودية من قبل المخلوق والربوبية لله وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام: ١٠٢]. ولا يجوز أن يجعل له الند والشريك،

(١) مثل عربي.

(٢) من كلام لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام).

ولو قيل بذلك فليس إلا وهماً لا واقع موضوعي له، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [فصلت: ٩]، وقال تعالى: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان: ١١]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر: ٣].

ثانياً: أن الله سبحانه هو المالك لكل شيء

وهذه نتيجة منطقية للحقيقة السابقة، فإن الخالق، بالمعنى القرآني، أعني الإيجاد من العدم بنحو مستقل، هو المالك، ومن ثم يثار تساؤل استنكاري عن هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٠٧].

مالكية الله تعالى:

وفي آية أخرى تضيف إلى مالكية الله للملك المادي ملك السلطنة والسياسة... فقال تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٦]. ولم يُستثن من هذه الحقيقة الوجودية ومن مقتضى هذا الأصل أحد من الناس ولا أمة من الأمم، قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلِ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [المائدة: ١٨].

ثالثاً: أن الله سبحانه العالم بكل شيء

فقال تعالى في الربط بين الخلق والملك والعلم: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ٧٣].

مما يترتب عليه رفع حس المسؤولية إلى أعلى مستوياته، فيما يرتبط بتنظيم العلاقة بين المخلوق والخالق، حيث لا يستثنى عمل من رقيبته، ولا يسوغ التقصير في سره وعلانيتها، فقال عز من قائل: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد: ٩].

ولأنه العالم بلا جهل، ولأنه الذي لا يخفى عليه شيء ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ

خَافِيَةٌ ﴿ [الحاقة: ١٨] ، ليس من الصواب ولا من الجائز أن يجعل له الشريك، وفي ذلك جاء قوله سبحانه: ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٢].
بل إن القرآن يقرر أن الربوبية تتوقف على العلم الذي يتيسر معه إيصال النفع وإلحاق الضرر بالآخر، قال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨].

رابعاً: أن الله تعالى المتصرف في كل شيء

فالولاية، وليست هي في المقام إلا التصرف، له وحده، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٠٧].
وولايته هذه تشمل الصالحين فتزيدهم صلاحاً، والظالمين فتلحقهم بأعمالهم، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].
وليس لأحد غير الله، حيث له الولاية المطلقة، أن يتصرف، أو يدعي أن له حق التصرف في مخلوق من مخلوقات الله دون أن يفوض إليه ذلك، قال تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٦].

خامساً: أن المرجوع إليه ليس إلا الله سبحانه

قال تعالى: ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٩٣]. وقال تعالى حكاية ومدحاً لمنطق المؤمنين إذا أصابتهم مصيبة، حيث يقولون: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٦].
وهذا الرجوع وتلك الصيرورة يأتيان في سياق بدئها وسيرها وغايتها النهائية وأن ذلك كله من الله، فعن الإنسان قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ [الانشقاق: ٦].

ومن لم يسلم بهذه الحقائق فإنه لا ينطلق من مسلمة علمية ولا من حقائق موضوعية، وفي ذلك يقول الحق تعالى: ﴿ وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ [لقمان: ٢٠].

وما نخلص إليه من كل هذا أن الإنسان ليس (حرّاً) في مقابل (الله)، بل هو (عبد) خاضع لسلطنة الله (تكويناً) ومخاطب بسلطنته (تشريعاً).
والمهم أن نتعرف على نواحي التقييد لهذه الحرية، وهل تتنافى مع الكرامة الإنسانية

والحق الإنساني؟ وإن كان فيما قدمناه من حقائق وجودية لا يُتصور مثل هذا التنافي ولا يُتخيل سلب مثل ذلك الحق.

ولحل معضلة التوفيق بين (الحرية الإنسانية) والمساءلة الربانية لهذا (الإنسان المسؤول) من جهة، وبين (الربوبية المطلقة) من جهة أخرى، بيان موكول للبعد الكلامي من البحث إذ «لا جبر ولا تفويض، بل أمر بين الأمرين».

الأصل الثالث: الحرية مقصد من مقاصد الشريعة

إذا وضعنا بعين الاعتبار التعرف على فلسفة بعثة الأنبياء، التي تكثفت في خاتمهم وسيدهم محمد بن عبد الله ﷺ، فسنجد أن من أهمها: نشر العدل، وإقامة القسط، والتسوية بين الناس بما ينسجم وما تقدم من حقائق.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

فالغاية من بعثة الأنبياء والرسول، كما هو واضح من مفاد الآيات، قيام الناس بالقسط، الذي يعني نفي العدوان ورفضه، وعدم السماح به، ونيل كل ذي حق حقه. لا فرق في ذلك بين أن يكون الحق صغيراً أو كبيراً، ولا بين أن يكون من عليه الحق قوياً أو ضعيفاً، بل ولا بين أن يكون من له الحق صديقاً أو عدواً، فالعدل قيمة مطلقة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدُوا وَإِنْ تَلَّوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدُوا أَعْدَاؤُهُمْ أَقْرَبَ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

وهذه الغاية والقيمة المطلقة نابعة من أن الأمر بها، وهو الله تعالى، عادلٌ مطلقٌ، ومن الطبيعي أن يكون هناك تناسب بين الأمر والغاية التي ينشدها من أمره، قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

ولقد أعلن الله سبحانه ذمًّا شديداً لتلك الأمم التي لم تحسن استقبال الأنبياء، بل تبادوا في ذلك إلى درجة قتلهم وتصفييتهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، كما أعلنها حرباً شعواء وبلغت مغالطة في بعض مراتب العدوان على حقوق الآخرين، كما في الربا، وفي ذلك قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَعْمَلُوا فَاذْنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسٌ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩]. وقال تعالى عن

بعض أهل الكتاب، وهم كما نعرف ليسوا مسلمين، وكيفية التعامل معهم بالعدل، حتى في الخصومات التي تقع بينهم وترفع للنبي ﷺ أو لمن يقوم مقامه: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاؤُوكَ فَاخُكُمُ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضُوا عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَصُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاخُكُمُ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

بل إن الاهتمام بالعدل والقسط حفظاً لحقوق الناس تجلى في أن أطول آية في الكتاب الكريم هي الآية التي عالجت مسألة الدين وتوثيقه، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

شمولية العدل:

كما أن قيمة العدالة تشمل، إلى جانب الحقوق المادية، الحقوق المعنوية، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْأَمُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

معنى الحرية:

والحرية التي ينشدها المسلم - طبقاً لمنطق القرآن - كما ينشدها جميع دعاة الحرية، تعني أحد أمرين:

الأول: إعادة الحق المسلوب، سواء كان أرضاً محتلة يسعى أبناؤها لـ (التحرر)، أو مسجوناً يلج على إطلاق سراحه لينال (الحرية)، أو عبداً مملوكاً يسعى إلى عتق نفسه لينال حريته...

الثاني: المحافظة على الحقوق من أن تسلب.

وإعادة الحق والمحافظة عليه لا يتصوران إلا بعد أن يقرر - نظرياً وفلسفياً - أن هذا (حق) ثابت لهذا الطرف أو ذاك. وهذا ما قمنا بعرضه في الأصل الأول، حيث أكدنا على أن الإنسان في مقابل ربه (عبدٌ) وليس (حرّاً).

وأما بين الإنسان والإنسان فلا ولاية لأحد على أحد مطلقاً، فالأصل الأولي في طبيعة العلاقة هي (الحرية المطلقة) ولا يصح قرآنياً أن يقيد أحدٌ حرية أحدٍ إلا وفقاً للقانون الذي استعرضته

مجلد الآيات والروايات التي بينت قواعده ومبادئه، وفصلت أحكاماً تبتثق من تلك القواعد والمبادئ، وهي في مجموعها، على مستوى الأصول والتفاصيل، تقوم على أساس العدل والقسط. ويُستثنى من هذا الإطلاق في الحرية ما أثبتته الآيات والنصوص الشرعية المعتبرة من ولاية نابعة من ولاية الله عز وجل، مما يقتضيه النظام الاجتماعي الذي لا يحق لأحد تجاوزه أو التعدي عليه لأن فيه افتتاتاً على الحق المطلق، بمنظور أصحابه، وعلى حقوق أطراف هذا النظام الاجتماعي الآخرين.

السبيل إلى الحرية:

ويدعم الوحي - كما نصت عليه الآيات القرآنية - الفلسفة من بعث الأنبياء والرسول بالتأكيد على أمرين:

١- أن التغيير، والتحرر نوع من التغيير، لا يتحقق من غير توفر الإنسان نفسه على نزوع ذاتي نحو المقصود، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

٢- أن لمعارف الوحي دوراً محورياً في إحداث التغيير، من خلال إعادة صياغة الإنسان داخلياً، وبمقدار تفاعل الناس في الدرجة الثانية، عبر وسائل تتوزع على إصلاح الجوانب العقلية والنفسية والسلوكية، بما يسوغ لنا تسميته أسس النهضة السبعة، ثلاثة توفرها الدعوة، وأربعة يتوفر عليها المستنهضون:

أولاً: التطهير

ثانياً: التوير

ثالثاً: التحرير

رابعاً: التصديق

خامساً: الانتماء

سادساً: النصر

سابعاً: الثبات والاستقامة

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ، النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ. فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ، وَعَزَّرُوهُ، وَنَصَرُوهُ، وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

٣- معالم الحرية في المنطق القرآني

تبين لنا مما سبق أن الحرية في القرآن مقيدة بسلسلة من القوانين الكونية والتشريعات

الوحيانية، وهما اللذان يشكلان معاً ما نسميه نظرياً (الحق)، واللذان يتحقق بالالتزام بهما معاً الأرضية لتحقيق الاستخلاف، الذي يعتبر الفلسفة والغاية من خلق الإنس والجان، اللذين يملكان القدرة على الاختيار، وهي ما نعنيه بـ (الحرية)، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾^(١) [الذاريات: ٥٦].

وهذه القوانين وتلك التشريعات أودعت في كتابي التكوين والتدوين، وطُلب من الإنسان أن يقرأ ويتأمل ويتدبر في الكتابين معاً، ليكون ذلك سبيلاً لفهم أولاً، والإذعان ثانياً، والتناغم معها ثالثاً.

أ - فعن كتاب التكوين، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

ب- وعن كتاب التدوين قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠].

ويَجْمَعُ الكتابين أنهما حق لا اختلاف فيه ولا تخلف ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَكِنْ نَحْدِلْ سُنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الفتح: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦]. فكلاهما -إذن- يُكوِّنان سلسلةً من السنن التي يجمعها أنها قوانين صارمة لا مجال فيها للاستثناء، ولكن بمقدار ما يتعمق في فهمها الإنسان يتأتى له إجادة التعامل معها لاستثمارها بالنحو الأفضل ليحقق بذلك سعادته العاجلة في الدنيا والآجلة في الآخرة.

غير أن هناك فرقاً بين الكتابين يتمثل في أن الله سبحانه حض (الإنسان) على أن يباشر هو التعرف على قوانين الكون، ويستوعب كتاب التكوين بجهد وجهد، وتكفل بإعانتة على ذلك كل حسب ما يبذله من الطاقة دون أن يفرق بين الصالح من الإنسان والطالح، إلا ما يمكن استفادته من استثناءات، كما في عصر الظهور. وأما التشريعات الوحيانية فلم يوكل لـ (الإنسان) أن يستوعبها بنفسه بل لابد فيها من التوقيف والتلقي. فقدرة (الإنسان) على أعمال العقل وتوظيفه في فهم القوانين التكوينية أعلى من قدرته على فهم حقيقة التشريعات الوحيانية.

ولعل السر في هذا الفرق هو أن التكوين ملك وشهود، بينما التشريع ملكوت وغيب. وطبيعة البحث لا تسمح بالتفصيل في الفوارق بين النوعين.

(١) من المسلم في الفكر الإسلامي أن الجن مخاطبون بالوحي كما خوطب الإنس . انظر سورة الجن.

ولنُجَلُّ أبصارنا في معالم هذه الحرية كما جاءت في القرآن الكريم:

١- الحرية في التفكيك:

القرآن الكريم يحض الناس على فضيلة الاستماع وغربة الأفكار واختيار الأحسن منها، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَنْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨]. وهذا يعني -فيما يعني- التحرر من أسر الفكر المتخلف والمنحرف والخطأ، والتحرر من أسر التقاليد البالية التي لا تلتقي والمنطق، وهذه من صلب ووظيفة الوحي ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

كما أنه ينكر على أولئك الذين لا يحترمون نعمة العقل في ذواتهم، ويغلبهم الكسل وتستولي عليهم روح الآباء وعقلياتهم دون تمحيص لما وجدوه عندهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلُو كَانُوا آبَائُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

ومن هذه الحرية تتفرع الحرية في الفضاة بالدين ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ولا يكتفي النص القرآني بإقرار هذه الحقيقة وهذا القانون، بل يتجاوزه إلى ذكر علته وفلسفته بقوله تعالى: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ فمادام الرشد بيناً والغى بيناً فلا مجال للإكراه الديني لفرض الدين ولو كنا على قناعة بأنه دين الحق. ولكن لا مانع من تبيان حقيقة موضوعية وهي ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

بل تترقى آية أخرى لتعجب من الإكراه في الدين، وذلك في قوله تعالى على لسان نبي الله نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود: ٢٨].

ويضيف منطق القرآن أصلاً ومبدأً إلى تلك المبادئ والأصول يتمثل في أن وظيفة الأنبياء ليست سوى التبليغ والبيان، قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]. وقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾ [النساء: ٨٠].

إن اختيار الدين على الكفر والهدى على الضلال أمر يرتبط بالإنسان نفسه، لا مجال للإكراه فيه، ولا تسمح التعاليم الدينية والقرآنية به، وليس من وظيفة الأنبياء عليهم السلام ذلك بل يقتصر دورهم على التبشير والإنذار والإبلاغ...

لماذا يجب أن يكون الإنسان حرّاً؟

السر في ذلك -والله العالم- أن مشيئة الله تعلقت بأن يكون هذا الإنسان حرّاً فيما يختار، على مستوى القناعة والرضا الداخليين، فلا يتأتى لأحد، إلا الله تعالى الذي بيده الولاية على كل شيء وهو على كل شيء قديرٌ، أن يتصرف بفرض قناعة، والدين قناعة، على أحد. فالبنى الثقافية يكرسها الإنسان نفسه بما يبتكره، أو بما يتفاعل معه مما يصل إليه، حقّاً كان أو باطلاً، وعليه أن يتوقع نتائج ما آمن به واختاره إن شراً فشر، وإن خيراً فخير ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحریم: ٧] وقال تعالى: ﴿اضْلَوْهَا فَاضْبِرُوا أَوْ لَا تَضْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦]، وهو قانون عام لا يقف عند طرف دون آخر، قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩].

٢- الحرية في التعبير:

يكفل المنطق القرآني للإنسان حرية التعبير، بمعنى أن له يتفوه بما يعتقد، بما لا يصطدم مع حريات الآخرين ولا حقوقهم.

فمثلاً: لا يحرم الإسلام المجادلة ولا الحجاج مع الخصوم، وهما نوع من التعبير، فلمحق أن يجادل خصمه المبطل ﴿جَادِلْهُمْ بِلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، ولا يعاقب غير المسلم إن احتج ولجّ في حجاجه ولم يرتض الإسلام ديناً، قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠] فليس لنا أن نكرهم على التدين بالإسلام، لأن الرؤية القرآنية للتدين لا تسمح -كما تقدم- بالإكراه والفرض في ذلك، لأن الدين قناعة، فهو تحول من تبني فكرة إلى تبني أخرى، فهو تغيير في مكان النفس البشرية، والقانون القرآني يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُعَيِّرُوهُمَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

أجل، في التعبير وإبداء الرأي، كما في غيره، سلسلة من الضوابط التي يجب مراعاتها حفظاً لحقوق الآخرين، وتنظيماً للحريات، التي لا يتسع عالم الزمان والمكان، الضيق بطبعه، لتنفيذ إرادات الجميع.

فلك أن تعبر عن مقاصدك دون أن تعدي على الآخرين، ﴿اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ومن ثم فإنه عز اسمه ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٤٨]، وذلك لأنه عدوان منافٍ لما جاء من أجله الأنبياء ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧]، وفي المقابل فإن المنطق القرآن في بناء الإنسان وتنظيم حريته يدفعه إلى التأكيد على الجمال والحسن والخير والفضيلة، فمدح جماعة المؤمنين بأنهم ﴿هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤].

قيود للحرية في التعبير:

- أ - يحظر الكذب، قال تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].
- ب- تحظر المهاترات اللفظية في الجدل الديني والمذهبي، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨].
- ج- يحظر هتك المسلم بالتشكيك في إسلامه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النساء: ٩٤].
- د - تحظر الإضافات الشخصية لمعرفة الدين، قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمْتُهُ آفَافًا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَأَمْنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَدَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١].
- هـ- يحظر التدخل في التشريع دون الرجوع للمصادر الوحيانية، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَمْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَمْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].
- و- تحظر السخرية من أحد لأحد، أو من جماعة لجماعة، أو الحط والإزرار والازدراء، فإنه من الظلم والعدوان، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِاللِّتَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْمُسْتَوْقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].
- ز - يحظر التنجيس اللفظي من قبل النساء حفظاً للآداب العامة في المجتمع، قال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢].
- إلى غير ذلك من قيود وضوابط.
- وأخيراً: فإن المقبول من القول ما كان موافقاً للحق، المتمثل في إرادة الله تعالى وأحكامه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَفُؤُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَفُؤُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

٢- التحرر من الظلم السياسي والاجتماعي:

تحت هذا العنوان نجد نصوصاً كثيرة جعلت من مقاومة الظلم والظالمين مبدأً دينياً أصيلاً، لم يستثن منه نبي ولا دعوة، ومن ثم فإن الإسلام، وهو خاتمة تلك الديانات وعصارة تلك المشاريع، بل أفضلها وأكملها، نحا هذا المنحى فصار العدل والقسط الركناً الركين في الثقافة القرآنية التي تتلمس التحرر من الظلم في كل زاوية من زواياها، وفي

كل بند من بنودها:

١- بدءاً برفض احتمال وقوع الظلم من قبل الله تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

٢- مروراً بالأنبياء الذين يشترط فيهم ليس العدالة والتقوى فحسب، بل لا بد لكمالهم أن يصل إلى مستوى (العصمة) ولذلك جاءت الديانات السماوية جميعها بلزوم متابعة الأنبياء دون تردد ولا استثناء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣].

٣- وانتهاء بالشريعة نفسها، التي تضمنت حرباً معلنةً على الظلم والظالمين، فقال عز من قائل مقررراً حقيقة قرآنية عن الله عز وجل الذي هو صاحب هذا البرنامج والمشروع الذي هو (الدين): ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧].

وقد عدّ في القرآن النجاة والحرية نعمة، كما نلاحظ في النماذج التالية:
أولاً: قصة النبي نوح عليه السلام ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨].

ثانياً: قصة النبي يوسف عليه السلام ﴿إِذْ أَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ السِّجْنِ﴾ قَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴿[يوسف: ١٠٠].

ثالثاً: حكى تاريخ الأنبياء التحرري من الظلم، ويمكننا القول إن قصة موسى عليه السلام وتحريره بني إسرائيل تعد نموذجاً واضحاً وتفصيلاً للمنطق القرآني، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٤١].

فبنو إسرائيل كانوا قوماً مستعبدين مظلومين مسحوقين، بعث الله تعالى إليهم نبيه موسى عليه السلام لـ (يحررهم) وينجيهم مما هم فيه من المحن والإحـن.

لذلك كان الجهاد في سبيل الله تبدأً رئيسياً من بنود الإسلام تكرر ذكره في القرآن مقصوداً به تحرير الإنسان من أشكال الظلم.

قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

٣- الحرية الاقتصادية

كفل المنطق القرآني الحرية الاقتصادية فـ«الناس مسـلطون على أموالهم»، وتلمس ذلك في جواب قوم شعيب لنبيهم عليه السلام ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ

أَبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَكِيمُ الرَّشِيدُ ﴿ [هود: ٨٧] ، مع مراعاة بعض الضوابط كما لمسنا ذلك فيما سبق.

قيود وضوابط:

أ - حظر الإسراف، قال تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١].

ب- حظر التبذير، قال تعالى: ﴿ وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٦-٢٧].

ج- حظر الربا، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

د - حظر الرشوة، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْنُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٨].

هـ- حظر الكسب الحرام، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٩] □